إلـــى
لقـــاء المؤمنيـــن
وبنـاء الجيـــل المؤمـن

الــولاء

بيــن

منهــاج اللــه والواقــع

تأليـف
الدكتور عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م

دار النحوي للنشر والتوزيع
ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ابني إياد
الـــذي توفـــاه الله يوم الأربـــعـــاء ٢٨/ ٥/ ١٤١٢ هـ
(٤/ ١٢/ ١٩٩١م) وهو يحمل دعوة الله وما فيها من صفاء
الولاء، وهو يعينني في إخراج هذا الكتاب
رحمه الله وغفر له

الافتتـاح

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. [آل عمران: ٢٨].

عن عمــر بن الخــطاب ـ رضي الله عنـه ـ قال، قال النبي ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قال: يا رسـول الله تخبرنـا من هم، قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يونس: ٦٢] ».

(رواه أبوداود)[١].

---

(١) سنن أبي داود. كتاب (١٧) باب (٧٨). حديث رقم (٣٥٢٧).

المقدمــة

مع هذه اللحظات الخطيرة من تاريخ الأمة المسلمة، ومع الأحداث المؤلمة في واقعنا اليوم، نحتاج إلى وقفة وتأمل، أو إلى وقفات طويلة وتدبر واع، قبل أن تجرفنا الآلام إلى آلام أشد، أو تدفعنا العاطفة والعصبيات إلى ضلالة وفتنة. لابد من الوقفة ومراجعة النفس، ومراجعة ما نحمل من فكر وتصور، وما نقدم من عمل وممارسة، عسى الله أن يهدي قلوبنا إلى الحق ويجمعنا عليه إنه على كل شيء قدير وهو الوليّ الحفيظ.

ومن أخطر ما يجب أن نقف عنده ونراجع أنفسنا به هو «الولاء»، لنرى حقيقة ولائنا وحقيقة مواقفنا وحقيقة نهجنا. «الولاء» وميزانه الإيماني هو محور الإيمان والتوحيد، وهو أهم الصور التطبيقية للإيمان والتوحيد في واقع الإنسان، وهو ميدان الابتلاء والتمحيص الذي كتبه الله على ابن آدم ليميز الله به الخبيث من الطيب، وليقضي به مصير الناس: فريق للجنة وفريق للسعير. لذلك كان الولاء في ميزان الإيمان

قضيّة الحسم والمفاصلة لا قضية التراخي والمساومة.

من أجل هذا كله كان «الولاء» من أوسع القضايا التي فصَّلها منهاج الله، قرآنًا وسنَّة، فتناوله من جميع جوانبه الفكرية والنفسية والعملية في واقع الحياة، وربطه ربطاً موثَّقاً مع جميع قضايا الإيمان والتوحيد، حتى بدا كأنه هو محور الإيمان والتوحيد ومحكُّه وميزانه، وحتى لا يكون للناس حجة على الله أبدًا.

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الولاء من جميع جوانبه في أكثر من ثلاثين سورة من سوره، وفي آيات بيّنات مفصّلات، مثل سور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة، يونس، هود، يوسف، الرعد، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، الحج، الفرقان، السجدة، الزمر، فصِّلت، الأحقاف، الجاثية، الدخان، الشورى، الممتحنة، التحريم، وسور أخرى غيرها. لقد امتدّ عرض قضية الولاء في منهاج الله مع جميع مراحل الدعوة الإسلامية، منذ بدء الوحي حتى انقطاعه وانتقال محمد، رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى. وامتد عرض قضية

الولاء في منهاج الله لتدخل كل ميادين الممارسة الإيمانية في واقع المؤمن الفرد وواقع الأمة المسلمة التي بنتها النبوّة. لقد امتد هذا العرض من خطرات النفس ونجوى الصدور إلى البيت والأسرة، إلى التجارة والمعاملات والاقتصاد، إلى الحياة الاجتماعية بكل آفاقها، إلى السياسة، إلى الحروب وميادين القتال يصوغها الجهاد في سبيل الله. لقد جاء العرض ربّانيًا معجزًا، متناسقًا متكاملاً، مترابطًا فيما بينه مترابطاً مع منهاج الله، يحمل قوة التأكيد والإلحاح، ليبرز بذلك كله خطورة هذه القضية في حياة الإنسان، في حياته الدنيا، وفي مصيره في الدار الآخرة.

لا نستطيع هنا أن نأتي بالعرض كله كما عرضه منهاج الله. وأنّى لنا ذلك! ولكننا نستطيع بعون الله ورحمته أن نورد قبسات من منهاج الله، لنوضح أهم ملامح هذه القضية من ناحية، ولنؤكد من ناحية أخرى أن على المؤمن أن يعود إلى منهاج الله ليدرس هذه القضية في تكاملها وتناسقها وترابطها هناك، دراسة ممتدة مع العمر كله، ليظل منهاج الله هو زاد المؤمن في سعيه وجهاده إلى الجنّة.

ولعله من المفيد أن نورد موجزًا لمعاني كلمة «الولاء»

وأصولها ومشتقاتها في اللغة العربية ليساعدنا ذلك على فهم آيات الله وتدبرها بصورة أدق وأقرب للتقوى.

وَلَاه، يَلِيه، وليًا: دنا منه وقرب.

وَلِيَه يَلِيه وليًا: ملك أمره وقام به، نصره وأحبه فهو والٍ وجمعها وُلاة.

تولّى الشيء أو الشخص أو الأمر: لزمه، نصره، أحبّه، اتخذه وليّاً، تقلّده وقام به.

الوَلاية: القرابة والنصرة.

الولاية: القرابة، الخطة، إمارة السلطان، البلاد التي يُتسلط عليها.

الموالاة: معاهدة الرجل لآخر

المولَى: الربُّ، المالك، كلُّ من ولي أمرًا وقام به، المحب، الصاحب، الحليف، النزيل، الجار، الشريك، الصهر، القريب من العصبة كالعمّ وابن العم، المُنْعِم، المُعْتِق، المُنْعَم عليه، المُعْتَق، العبد، التابع. والجمع موالٍ.

الوليّ: النصير، المحب، الصديق، الحليف، الصهر، المعتق، التابع، المطيع. والجمع أولياء.

ولي العهد: وارث الملك، ووليّ اليتيم الذي يلي أمره. وكذلك وليُّ المرأة.

الولاء بين منهاج الله والواقع

١ ـ ساحة الولاء، حدوده وأماراته:

من العرض السابق الموجز نرى أنَّ معاني الولاء تمتد بين الحب والنصرة، والملك والإمارة، والقرابة، وولاية الأمر وتدبيره والحكم فيه. ومن ناحية أخرى تحمل معنى مضادًا حين تدل على العبد والتابع الذي يتولى غيره أمره. وبذلك تجمع هذه الكلمة معاني التصوّر والفكر، والعاطفة والشعور، والعمل والسعي. فهي كلمة جامعة واسعة، جاءت معانيها وظلالها هذه كلها ممتدة في منهاج الله مع الآيات البيّنات المفصّلات والأحاديث الشريفة.

ومحور الآيات والأحاديث يدور حول القضية الأساسية التي يعرضها منهاج الله، وهي أن يكون ولاء المؤمن أولاً وقبل كل شيء ولاءً خالصاً لله وحده، لا يشرك معه في الولاء غيره أبدًا، وإلا فسد الإيمان. وكذلك أن يستغرق هذا الولاء الخالص الصافي لله سبحانه وتعالى فكر المؤمن وتصوره، وعاطفته وشعوره، ونهجه وممارسته. وكذلك أن يصدر من

هذا الولاء الخالص لله أي ولاء آخر في الحياة الدنيا بين المؤمن وغيره.

فالقضية الهامة والتصوُّر الإيماني هو أن يكون الولاء الكامل المطلق لله رب العالمين، رب السموات والأرض، الله الذي لا إله إلَّا هو له الأسماء الحسنى كلُّها، ولاءً تغذِّيه العاطفة النقية والفكر الواعي في ظلال العبودية الكاملة من المخلوق العبد لربه وسيده ومولاه وخالقه، ولاءً كاملاً مطلقًا خالصًا نقيًّا. فإذا صدق ولاء العبد المخلوق لرّبه وخالقه الله: إيمانًا وعلمًا وممارسة، صدق بعد ذلك العبد المؤمن في كل ولاء دنيوي ينتج عن ممارسته الإيمانية في حياته الدنيا، مع أهله ورحمه، مع والديه، مع جيرانه، مع إخوانه المؤمنين، ليظلَّ الولاء في ساحة الإيمان لا يخرج عنها.

إن هذا الولاء الخالص لله رب العالمين يقضي بأن يكون المؤمن واعيًا كل الوعي لمعنى الألوهية والربوبية، مدركًا لخصائصها وصفاتها، مؤمنًا بالله إيمانًا صادقًا، يجمع في إيمانه بالله الأسماء الحسنى كلها. ويقضي الولاء الصادق لله بأن يكون المؤمن واعيًا مدركًا لمعنى العبودية لله، عبودية المخلوق لخالقه وربّه ومولاه. فإذا صحّ في قلب المؤمن هذا التصور

الحق أصبح حبّه لله ولرسوله محمد ﷺ هو أعلى حب وأصفى حب، أعلى من حبه لنفسه ولأهله ولأرضه وماله وولده، أعلى من حبه لأي شيء في الحياة الدنيا. ومن هذا الإيمان الذي يجمع التصور الصادق والعاطفة الأسمى والحب الأكبر، من هذا الإيمان يلتزم المؤمن بالوفاء بعهده مع الله، عهده الذي أخذه الله من بني آدم في عالم الذّر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ . . .﴾ [البقرة: ١٦٥].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**». [رواه الشيخان والنسائي][(١)]

وعن أنس أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان. من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في**

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان (٢) باب (٨). مسلم: كتاب الإيمان (١) باب (١٦). حديث (٧٠) النسائي: كتاب الإيمان (٤٧) باب (١٩). حديث (٥٠١٣).

الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» .

[رواه الشيخان والترمذي والنسائي][1]

هذا هو الولاء الخالص الصادق لله سبحانه وتعالى، ولاء يجمع العبودية الصادقة والحب الأكبر والعهد الأمين.

وإن أول استجابة صادقة لهذا الولاء وهذا الحب الأكبر هي أن يلتزم المؤمن منهاج الله ـ قرآنًا وسنَّة ولغة عربية ـ التزام عمر وحياة، تلاوة وتدبرًا ووعيًا، وممارسة وتطبيقًا، ومنهج حياة، ودعوة وبلاغًا.

ثم ينطلق المؤمن في حياته كلها، في ممارسة إيمانية وعمل صالح لِتُقدِّم هذه الممارسة الإيمانية الممتدة في واقع الحياة أمارة بعد أمارة على صدق الولاء لله وصفائه وإخلاصه، على طريق ممتد إلى الجنة.

إن من أبرز أمارات الولاء في حياة المؤمن أن يطمئن المؤمن للدرب الذي يسير عليه، وأن يطمئن إلى أن الدرب خاضع لمنهاج الله غير منحرف عنه. وكذلك أن يطمئن إلى وضوح

(١) البخاري: كتاب الإيمان (٢) باب (١٤). مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٥) حديث (٥٦٧). الترمذي: كتاب الإيمان (٤١). باب (١٠). حديث (٢٦٢٤). النسائي: كتاب الإيمان (٤٧). باب (٢). حديث (٤٩٨٧ ـ ٤٩٨٩).

أهـدافه وجلائها في هذه الحياة الدنيا، وأن الأهداف كلها متصلة بالدرب، وأن الدرب غير منحرف عنها، وأن الدرب والأهداف تقود كلها إلى الجنّة على صراط مستقيم حدده الله وفصّله في منهاجه. إن هذه القضية هي أبرز أمارات الولاء الصادق لله وأهمها، لأنها هي التي تحقق معنى الولاء في مسيرة طويلة ممتدة في الحياة الدنيا.

هذا هو الولاء الصادق الخالص لله سبحانه وتعالى، يجمع هذه المعاني والتصورات والعاطفة والنهج والأهداف في صورة جلية كل الجلاء. ومن هذا الولاء ينبع كل ولاء آخر في حياة المؤمن في الحياة الدنيا، ومن هذا العهد مع الله يقوم كل عهد آخر في الحياة الدنيا، ومن هذا الحب العظيم لله ولرسوله، ومن نبعـه وفيضـه، ينبثق كل حب في الحياة الدنيا: حب الأهل والمال والولد، حب المؤمنين والموالاة بينهم، حب الخير للنـاس جميعًا، حبُّ الهداية والإيمان للإنسان، حب الحق والصـدق والعـدل، كل حب في الحياة الدنيا، كل ارتباط وولاء، كل عهد، كل هذا يرتبط بالولاء الخالص لله والعهد الصادق مع الله والحب الأكبر لله ولرسوله.

٢ ـ مع قبسات من منهاج الله:

عندما نتلو آيات الله في كتابه المبين، وعندما نتلو الآيات عن الولاء والموالاة، والولّي والمولى، تتجمع هذه المعاني كلها في قلب المؤمن. فلنأخذ قبسات من كتاب الله تشدُّنا إلى حقيقة الولاء وتنير لنا درب الموالاة:

﴿.. وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [البقرة: ٢٨٦].

أنت مولانا! أنت سيدنا وربنا ومالكنا، أنت الناصر المنعم، أنت وحدك القادر على نصرنا على الكافرين، وأنت وحدك القادر على العفو عنا، والمغفرة لنا، ورحمتنا، أنت مولانا! وتنطلق هذه الكلمات من قلب المؤمن وهو على درب الدعوة يجاهد في سبيل الله، يجاهد الكافرين! فمن قلب الميدان، من قلب الدعوة والجهاد، من قلب الممارسة والعمل، يخرج هذا الدعاء والرجاء، لا من قلب الوهن والكسل والاسترخاء!

وكذلك:

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٥٠].

﴿ . . فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨].

ويمتد الولاء في الآيات البيّنات إلى جميع ميادين الممارسة والعمل : إلى الشعائر من صلاة وزكاة وغيرها ، إلى الجهاد في سبيل الله ، إلى سائر ميادين الحياة . ويمتد الولاء لله بكل تصوراته وصدقه وصفائه ، متجاوزًا الحياة الدنيا إلى الآخرة ، حيث تنكشف الحقيقة الكبرى للناس جميعًا ، حيث يرون كلهم أن لا مولى إلا الله ، هو المولى الحق :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

[يونس : ٣٠].

ومع هذا الامتداد بين الدنيا والآخرة ، يحمل الولاء الصادق الخالص لله البُشْرى للمؤمن ، تشرق من إيمانه وتقواه في قلبه وصدره ، وتسري في عروقه وكيانه ، حتى يذهب عنه الخوف والحزن ، وتغمره السكينة والاطمئنان :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

بشرى يحسُّها المؤمن في كيانه وأحنائه، ولا يحسّ بها سواه. إنها ثمرة الولاء الصادق لله، وفيض الرحمة من الله، ونعمة الجزاء والفضل من الله الغفور الرحيم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ
وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴾

[فصِّلت: ٣٠ ـ ٣٢].

إن الولاء الخالص الصادق لله هو الحبُّ الأكبر لله ولرسوله، وهو العبودية المطلقة لله، وهو اللجوء الكامل لله والاتكال عليه، وهو الوفاء الأمين بالعهد مع الله، وهو

الإقرار المطلق بالربوبية لله وبالألوهية له، وهو الهداية والنور الممتـد، والبشرى المشرقة في النفس، والسكينة والطمأنينة حتى لا يعود معها خوف ولا حزن، وهو العبادة الممتدة في الحياة والممارسة الإيمانية والعمل الصالح، ليقدم هذا كله أمارة بعد أمارة على صدق الولاء لله.

هذا هو الولاء الممتد في الحياة الدنيا، والممتد من الدنيا إلى الآخـرة، حتى ارتبط معنى الـولاء بكل معاني الأسماء الحسنى لله، فالله هو الـوليُّ وهو الحفيظ وهو العليم الخبير الحكيم الغفـور الـرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهـادة هو الرحمن الرحيم. هو الخالق وحده فلا خالق سواه، وهو على كل شيء قدير له الأسماء الحسنى كلها.

٣ ـ صور الانحراف عن الولاء الصادق:

وإذا كان هذا هو معنى الولاء لله سبحانه وتعالى، فقد نهى الله نهيًا قاطعاً أن يتخـذ الناس أولياء من دون الله، يخصونهم بالحب والطاعة مما لا يجوز إلا لله وحده، على نحو ما ذكرناه آنفًا:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٩].

ولا يجوز أن يُتخذ الناس أولياء من دون الله أبدًا، ولو كان ذلك تقرّبا إلى الله زلفى حسب ما يظنون. فهذا التقرب لله باطل مردود، وأهله كفّارون كذابون.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

ويلحّ القرآن الكريم على هذا النهي إلحاحًا شديدًا، ويؤكده في سورة بعد سورة، وآية بعد آية. ذلك لأن هذا «الولاء» لغير الله مزلق خطير يوقع الشيطان فيه كثيرًا من

الناس، حتى يتخذوا الشيطان وليًا من دون الله:

﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ...﴾

[البقرة: ٢٥٧].

﴿... إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

[الأعراف: ٢٧].

كم من الناس يرفعون شعار الولاء لله. ولكن واقع الممارسة في الحياة الدنيا يكشف أن ولاءهم الحقيقي لشهواتهم وأهوائهم، فلها حبُّهم الأكبر وانقيادهم الواضح. أو تكشف أحداث الحياة أن ولاءهم لذاتهم ولمصالحهم ولكِبْرهم وغرورهم، فينحرفون إلى الفتنة في زهوة الغرور المضل والكبر القاتل، أو تكشف الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء وتمحيص، أن ولاءهم لعائلاتهم وعشائرهم وأهليهم، أو لقوميتهم وأوطانهم، حين رفعوها فوق كل شيء. ألم يقل الشاعر في ذروة فتنته وضلاله:

لو مثّلوا لي موطني وثنا
همممت أعبُدُ ذلك الوثنا

وقد تكشف الدنيا أن ولاءهم لسلطان أو عالم، أو لأي قوة

برزت لهم وزيّنها الشيطان، حتى أحبوها أكثر من حبهم لله، فأطاعوها عن وعي أو غير وعي، واتبعوها من دون الله. والله سبحانه وتعالى يلح على عباده ويؤكد لهم خطر هذه الضلالة حتى لا ينزلقوا فيها إلى هلاك محقق، إنها العصبيات الجاهلية بكل أشكالها والفتنة بكل زخارفها:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

نعم! هذا هو أمر الله لعباده المؤمنين، تلحُّ عليه الآيات الكريمة، وتفصل فيه تفصيلاً لا يدع حجة لضال أبدًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤ - ١٩٦].

هذا هو القول الحق والتحدي القاطع العظيم: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون. إن وليّي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقد يكون الهوى وليًا يأمر وينهى، فيطيعه عُبّاده الضالون:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]

وقد يكون الظالمون المجرمون هم الأولياء، لا يتبعهم إلا الظالمون المجرمون:

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقـد يتخذ بعض الناس أعداء الله أولياء لهم، فيلقون إليهم بالمودة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾

[الممتحنة: ١].

ألـح القـرآن الكـريم بشدة ونهى بشكل حاسم فاصل قاطع، وفصل في هذا النهي تفصيلاً شديدًا، حتى لا يقع المؤمنـون في هذا الهـلاك، فلا يوالـون هواهم، ولا يوالون الشيطان، ولا يوالـون عبـادًا أمثـالهم يرفعونهم إلى مصافّ الآلهة، ولا يوالون الظالمين المجرمين، ولا يوالون أعداء الله الـذين كفـروا بما أنزل الله على محمد ﷺ، ولا يوالون ولا يوادّون كافـرًا أبدًا. لا يوالون من دون الله أحدًا أبدًا ولاء يجمـع الصفات والخصائص التي سبق ذكرها، الخصائص التي تنبع من الإيمان والتوحيد، وصدق العبودية لله، وتدبر منهاج الله ـ قرآنًا وسنّة ـ ولاءً يحمل معه الحبَّ الأكبر ليكون أعظم حب وأعلاه، ولاء تكون فيه الممارسة مصدقة للشعار،

والعمل أمارة على النيّة. هذا الولاء بهذا الحب لا يجوز إلاّ لله رب العالمين.

٤ ـ الموالاة بين المؤمنين في الحياة الدنيا ليكونوا أمة واحدة:

وحين نهى الله المؤمنين عن الانحراف إلى الولاء الضال المفسد، أمر عباده المؤمنين أن يكون بينهم موالاة، وأن يرتبط بعضهم ببعض بأخوة الإيمان، ليكون بعضهم أولياء بعض من دون الناس، وليكونوا أمة واحدة في الأرض، تحمل رسالة الله إلى الناس، وليكونوا خير أمة أخرجت للناس يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وليكونوا شهداء على الناس بهذا الإيمان وهذه الأخوة وهذه الموالاة، وبالجهاد في سبيل الله، وبالانفاق في سبيل الله، بهذا كله وكثير غيره من مسئولية الأمة المؤمنة في الأرض كانت الأمة المؤمنة شهيدة على الناس:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن

وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أما الذين كفروا فهم أولياء بعض:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ويؤكد القرآن الكريم قضية الموالاة بين المؤمنين حتّى ترتبط هذه الموالاة بحقيقة الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الشعائر، ولتكون هذه الموالاة سببًا في رحمة الله وبابًا للجنة ولفضل من الله أكبر، لرضوانه سبحانه وتعالى، وذلك هو الفوز العظيم:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[التوبة: ٧١، ٧٢].

وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تؤكد هذه الموالاة حتى تبدو أنها جوهر الإيمان وصريح الصدق:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .... ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه**...». [رواه الشيخان][(١)]

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب (٤٥). باب تحريم الظلم (١٥). حديث رقم (٥٨/٢٥٨٠). فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب المظالم (٤) باب (٣).

تأكيد بعد تأكيد وإلحاح بعد إلحاح، لأن هذه القضية تقرر مصير المؤمن الفرد في الدنيا والآخرة، وتقرّر مصير المسلمين كلهم في الحياة الدنيا، وكذلك في الآخرة، فإذا انقطعت الموالاة بينهم قهرهم عدوهم وأَذلهم، ونشر الفتنة بينهم والفساد والشرك، ومسالك الضلال. وانتشر هذا الفساد في الأرض كلها بعد ذلك. فينزل بهم عقاب الله وبلاؤه في الحياة الدنيا، ويمضي عليهم حسابه في الآخرة.

إنها لا تقرر مصير الفرد وحده، ولا تقرر مصير الأمة المسلمة وحدها، ولكنها تقرر مصير المعركة في الأرض كلها بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر. إنها تقرر مصير الإنسان على الأرض في الحياة الدنيا ومصير البشرية كلها في معركة دائرة مع الزمن. إنها تحدد الصفوف والجبهات في الميدان، حيث تصبح المواقف مواقف حسم ومفاصلة، لا مواقف تردّد ومساومة.

إن قيام الأمة المؤمنة في الأرض ضرورة إنسانية، وحاجة أساسية للبشرية كلها، لتظل جبهة الحق والخير والصلاح أقوى من جبهات الفتنة والضلال والفساد. والفساد يحمل زخرفًا وزينة تُبتلى فيها النفوس والقلوب بين شهوات وأهواء

ومصالح وعرض من الدنيا زائل، بين لهو وخمر ونساء، بين مال وثروات وأطماع، بين منافذ وأبواب يتزاحم عليها شياطين الإنس والجن.

إن قيام الأمة المسلمة الواحدة في الأرض حاجة لا غناء عنها أبدًا لخير الإنسان في الدنيا والآخرة. إنها هي العصبة التي تحمل الأمانة التي عُرضت على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها. إنها هي التي تحمل الحقَّ في الأرض والصلاح. إنها هي التي قال عنها الله سبحانه وتعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴾

[آل عمران: ١١٠].

ولولا هذه الأمة المسلمة الواحدة، لولا هذه الفئة الظاهرة، لولا هذا الصف المؤمن الذي يقوم كالبنيان المرصوص، لولا هؤلاء لفسدت الأرض كلها:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾

[هود: ١١٦].

لولا هذه الفئة المؤمنة المتراصة كالبنيان لطغى الظالمون المجرمون في ترفهم وفسادهم، ولبغى المستكبرون في الأرض. وقوام الفئة المؤمنة المتراصة هو موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، موالاة نابعة من الولاء الصادق لله. ومضت سنَّة الله أن يُمحَّص الولاء.

٥ ـ المودة بين الولاء والموالاة وبين الدعوة والبلاغ:

ومن أخطر الميادين التي يُمحَّص فيها «الولاء» ميادين الحرب والقتال، والصراع والصدام. وميدان آخر هام كذلك هو ميدان الدعوة والبلاغ، ميدان الرسالة والبيان. ففي كل ميدان تمحيص وابتلاء لحقيقة الولاء، وتمييز بين ودّ الموالاة، والود الذي يقبل به عليك الناس ليسمعوا دعوتك وبيانك. ويعرض الله لنا مثلاً من هذا الابتلاء وذاك في واقع الحياة، ليكون هذا المثل درسًا للمؤمنين على مدى الدهر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾

[المائدة: ٥١، ٥٢].

تقرن هاتان الآيتان الكريمتان بين اليهود والنصارى وتجعلهما فئة واحدة في عدائهم وحربهم للإسلام. ولذلك ينظر إليهم الإسلام نظرة واحدة لا تجيز للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء: ﴿ . . . **لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** . . . ﴾. وحين ينهى الله سبحانه وتعالى عن موالاة أي منهما فإنه يؤكد هذا النهي حين يعتبر من يفعل ذلك ظالمًا، كما جاء في الآية الأولى، وفي قلبه مرض كما جاء في الآية الثانية. أكد الله سبحانه وتعالى النهي حتى يكون حاسمًا فاصلاً.

وينظر المؤمنون في ذهول إلى أولئك الذين «يسارعون فيهم»، ويتساءلون أهؤلاء الذين كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم ويؤكدون أنهم مع المؤمنين؟! لقد انكشف زيفهم وحبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾

[المائدة: ٥٣].

لقد جاءت الحرب ووقع الصدام، فمحص الله به حقيقة الـولاء، وجـوهر الإيمان، وانكشف خداع المنافقين الذين أخذوا يسارعون في اليهود والنصارى، ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . . !

إن هذا الموقف باب من أبواب الارتداد عن الإيمان، ولن يخسر به إلا صاحبـه، فإن الله يعزُّ المؤمنين الصادقين بقوم يحبهم ويحبونه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

كيف لا يكـون موقف هؤلاء الذين يسارعون في اليهود والنصـارى وهم يخشـون غلبتهم، موقف هوان ومرض في القلب؟! كيف لا يكون موقفهم منفذًا للارتداد عن الإيمان؟!

والإيمان يقضي أن يكون ولاء المؤمن لله ولرسوله، لينبثق من هذا الولاء موالاة بين المؤمنين وأخوة، ولينبثق موقف يؤكد الولاء ويُصدِّقه:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

هذا هو الولاء الحق، وهذه هي دائرته ومساحته، وهذه هي خصائصه، وهذه هي ثمرته: غلبة ونصر من عند الله، ومساحته الإيمان والتوحيد، وخصائصه أن يبرز الإيمان والتوحيد، وأن يبرز الولاء الصادق في الممارسة الإيمانية في واقع الحياة ابتداء من الشعائر وامتدادًا إلى سائر الميادين التي يخوضها المؤمنون على خشوع لله وقنوت له: ﴿... **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾.

إن أساس الولاء هو الولاء الخالص لله وحده، كما عرضناه سابقاً بكل خصائصه الإيمانية: ﴿**إنما وليكم الله**...﴾

ومن هذا الولاء لله سبحانه وتعالى ينبع الولاء للنبوّة المرسلة من عند الله ﴿... **ورسوله** ...﴾ ينبع ولاء

التصديق بالنبوة والرسالة الخاتمة. ومن هذا الولاء ينبع الولاء بين المؤمنين ولاء تتحقّق به أخوة الإيمان وبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض: ﴿. . **والذين آمنوا** . .﴾.

وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفصّل خصائص الولاء والموالاة، ليكون ذلك كله حقيقة واقعة وصورة مشرقة في حياة الإنسان.

من أجل هذه الصورة الربانية للولاء، الصورة المشرقة بالحق والصدق والعطاء، لا يجوز أن يقوم ولاء المؤمن لليهود والنصارى وهم يفسدون في الأرض، ويحاربون الله ورسوله، ولا يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ، وكذلك لا تحلّ موالاة الكافرين إطلاقًا. فجاء النهي كذلك حاسمًا قاطعًا، يربط هذا النهي بالنهي السابق الخاص بأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

فأصبح النهي حاسمًا فاصلاً يقضي بأن لا يكون ولاء بين

المؤمنين والكافرين، ولا بين المؤمنين وأهل الكتاب. وأصبح الأمر جليًا في أن يقوم الولاء بين المؤمنين أنفسهم على عبادة لله وطاعة له، ووفاءٍ بالعهد له، وقيام بواجب الخلافة في الأرض، وأداءٍ للأمانة التي حملوها، وليكون الولاء بين المؤمنين نابعًا من ولائهم الصادق الخالص لله سبحانه وتعالى على عبودية مطلقة وإنابة وخشوع.

وتمضي الآيات الكريمة في سورة المائدة تبين ما وقع فيه أهل الكتاب من انحراف عن التوحيد ونقض للعهد مع الله، واتباعهم أهواء قوم قد ضلّوا وأضلوا كثيراً، وموالاتهم للكافرين، ومخالفتهم للتوراة والإنجيل وقولهم الإثم وأكلهم السحت، إلى غير ذلك من الضلالة والانحراف مما لا يجوز معه موالاتهم أبدًا. ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢)

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ
ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٦].

للوهلة الأولى يظنّ بعضم أن هناك خلافًا بين هذه الآيات وبين الآيات السابقة من سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ.... ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

فحين تجمع هاتان الآيتان (٥١، ٥٢) من سورة المائدة بين اليهود والنصارى، وتجمعهم الآية التالية مع الكافرين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ . . ﴾

[المائدة: ٥٧].

فإن الآيات السابقة (٨٢ ـ ٨٦) تُفَرِّق بينهم، فتجعل اليهود والمشركين في ناحية وعلى موقف واضح من العداء، يكونون فيه أشد الناس عداوة للمسلمين، وتجعل الذين يقولون إنا نصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا.

يقول القاضي أبومحمد بن عطية في تفسيره لهذه الآيات: «وهذا خبر منسحب على الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن. وذلك أن اليهود مرَنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، ودَرَبوا العتّو والمعاصي، ومردوا على استشعار اللعنة وضرب الذلة والمسكنة، فهم قد لَجَّت عداوتهم وكثر حسدهم، فهم أشد عداوة للمؤمنين، وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب والنيران من المجوس. . .». ثم يقول ابن عطية: «والنصارى أهل كتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلوا، فهم يعتقدون أنهم لم يضلوا. . .» ثم يقول: «ولم يصف الله سبحانه وتعالى النصارى بأنهم أهل ودّ، وإنما وصفهم بأنهم أقرب مودة من اليهود

والمشركين . . . . . » ثم قال ابن عطية : «وذكر سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس : أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليروه ويعرفوا حاله . فقرأ النبي ﷺ القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فآمن ولم يزل مؤمنًا حتى مات فصلّى عليه النبي ، ﷺ»[١] . ناقش ابن كثير هذه الرواية عن النجاشي ووفده، فضعّف الرواية عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير والسُّدي . وقال : واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء أكانوا من الحبشة أوغيرها[٢]، ويذكر الطبري مختلف الروايات ويخرج في النهاية بأنها غير مخصوصة في فئة معينة[٣] .

والوقفة التي نحبّ أن نقفها هنا، متجاوزين الروايات المختلفة لأسباب النزول، هي أن المجموعة الأولى من الآيات في سورة المائدة تضع اليهود والنصارى والكفار في

---

(١) تفسير ابن عطية ج٥ (ص: ١ ـ ٩) .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ : (ص: ٨٥، ٨٦) طبعة دار المعرفة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م .

(٣) تفسير الطبري : ج٧، (ص: ١ ـ ٧) . ط٣ (١٣٨٨ هـ/١٩٦٨م) باني الحلبي ـ مصر .

صف واحد بنص صريح حاسم. والمجموعة الثانية تستثني «**الذين قالوا إنا نصارى**. . . .» ومهما كانت أسباب النزول التي تذكرها كتب التفسير فلن تتعارض مع الوقفة التي نحبُّ أن نقفها هنا، لنربط هذه الآيات الكريمة أو ظلالها بما يساعدنا على فهم واقعنا اليوم، وعلى حسن ممارسة هذه الآيات الكريمة ممارسة لا توقعنا في تناقض واضطراب.

والذي نراه أن سبب هذا التعارض الظاهري هو أن كلَّ مجموعة من الآيات تعرض قضية تختلف عن الأخرى، وأن ميدان ممارسة كل مجموعة هو ميدان مختلف عن ميدان المجموعة الأخرى في واقع حياة المسلمين.

فالمجموعة الأولى تتحدث عن قضية «الولاء»، «الولاء» بكل معانيه وظلاله النابعة من التوحيد. ولذلك حددت الآيات دائرة الولاء تحديدًا دقيقًا، كما عرضنا قبل قليل، حتى لا يكون هناك لبس ولا خطأ ولا إبهام. نفت الآيات نفيًا حاسمًا جواز موالاة الكافرين واليهود والنصارى. والولاء والموالاة هو أعلى درجات المودة والارتباط والتعاون. الولاء يجمع الناس على نهج واحد جليٍّ، ويربطهم بمسيرة واحدة وأهداف واحدة، وعهد واحد مع الله. وبذلك يظل الولاء الأول في الإسلام هو الولاء لله سبحانه وتعالى،

ولاء عبودية وتوحيد وحبٍّ وإخلاص. ولاء تضرع وخشية ورجاء. ولاء خشوع وقنوت ودعاء. ومن هذا الولاء ينشأ كل ولاء آخر في حياة المسلم. فلا يصح إذن أن يكون الولاء إلا في دائرة الإيمان والتوحيد: تصديقاً بالنبوة والرسالات، بالنبوة الخاتمة، وأخوة وموالاة بين المؤمنين. وتعرض الآيات الكريمة مواقف هذه الفئات الثلاثة وهم يستهزئون بدين الإسلام ويلهون به: «... **الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبًا....**». وهذه حقيقة مطلقة ماضية على جميع العصور والأجيال، حيث لا تحلُّ هذه الموالاة أبدًا. فإن في الموالاة نهجًا يُتَّبع، واهدافًا يُسعى إليها، وعقيدة تجمع ذلك كله، فأنىّ تصحُّ إذن موالاة الكافرين وأهل الكتاب.

وأعظم ميدان يكشف حقيقة الولاء هو الحرب، الحرب التي تكشف نارها حقيقة المعادن، وجوهر المناهج، وجلاء الأهداف، إنها الحرب التي يدخلها المؤمن مجاهدًا في سبيل الله، له نهجه المتميز، وأهدافه المتميزة، ليصلح في الأرض لا ليفسد، فأنّى يلتقي منهج الإصلاح مع منهج الإفساد. ولذلك جاءت الآيات الكريمة لتكشف موقف الضعفاء المنافقين الذين كشفتهم الحرب وجلادها:

﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على**

ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ .

إذن هذه هي القضية التي تعرضها الآيات الكريمة، وهذا هو أهم ميادين ممارستها. والحقيقة أن ميادين الحياة كلها مفتحة لممارسة الولاء، ولكن ميدان القتال يكشف ماكانت تخفيه النفوس، فتنفلت الكلمات يدفعها الخوف من الموت، ويدفعها حب الدنيا.

أما المجموعة الثانية من الآيات فتتحدث عن قضية أخرى وعن ميدان آخر من ميادين الممارسة. إنها تتحدث عن ميدان الدعوة والبلاغ، عن ميدان تبليغ رسالة الله إلى الناس. فإذا كانت ظلال الكلمات في المجموعة الأولى: «**نخشى أن تصيبنا دائرة**»، «**فعسى الله أن يأتي بالفتح**»، تشير إلى ميدان الصدام والقتال والحرب، فإن ظلال الكلمات أيضاً في المجموعة الثانية من الآيات تشير إلى ميدانها، إلى ميدان البلاغ والبيان، ميدان الدعوة والرسالة: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . . .**﴾. إنها صورة واضحة للدعوة وأسلوبها ونهجها وميدانها. إنه ميدان غير ميدان القتال الذي تدور فيه الدائرة على فريق، ويأتي الله بالفتح على فريق آخر. إنه

ميدان الدعوة والرسالة، ميدان البلاغ والبيان، حيث تتلى آيات الله فيستجيب فريق ويصد عنها فريق. وفي هذا الميدان لا تدرس قضية الـولاء، فالولاء قضية محسومة مقررة بكل خصائصها ومساحتها في حياة المؤمن كلها وبكل ممارساتها. فلا مجال للمؤمن الداعية أن يرتبط هنا بولاء مع أي فئة من الفئات المذكورة، وقد حسمت الآيات السابقة هذه القضية. ولكن الذي يمكن أن يثور هنا هو وُدٌّ أو عداوة، استجابة أو صدود. فغـالـب ما يظهـر من اليهود والمشركين هو العداوة والصـدود، حتى قلَّ أن تجد منهم من استجـاب إلى دعوة الإسلام. ولا يتعارض هذا مع استجابة عدد قليل من هؤلاء أو هؤلاء، فذلـك العـدد لا يغير شمول القاعدة واتساعها وصدقها. والمشركون الذين تعنيهم الآية هم المشركون الذين حملوا الشرك نهج حياة يصدون به عن سبيل الله، ويحاربون الله ورسـولـه. أمـا بين «**الذين قالوا إنا نصارى**» فقد تجد أعدادًا أكبر تستجيب لنداء الإيمان والتوحيد. وهذه الحقيقة يكشفهـا لنـا تاريخ الـدعـوة الإسلامية، ووجود فئات من «**الـذين قالـوا إنـا نصـارى**» لا تستجيب لنـداء الإيمان والتوحيد، فتقف حتى في هذا الميدان موقف عداء وصدود،

لا يغيّر الحقيقة الكبيرة التي تستعرض الزمن كله، كما يقول ابن عطية في تفسيره: «وهذا خبر منسحب على الزمن كله. . .».

ولابـد من أن نلاحظ هنـا نقـاطًا أساسية: فالمودة التي تتحـدث عنهـا الآيات الكـريمة هي مودة ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ للمؤمنين. أي عن مودتهم هم، لا عن مودة المؤمنين لهم. فالمؤمن ملتـزم بنهـج متكـامـل في علاقاته مع الناس كلهم، ولا يلتـزم بمـوقف آني ارتجـالي يتبدل مع الحالات النفسية. فهو حين لا يعطي ولاءه إلا في دائرة الإيمان الذي تبرزه الممارسة والتطبيق، فإنه يقابل كذلك الودَّ بودٍّ دون أن يُخدع ودون أن يَخدع، ويظل ودُّه جزءًا من نهج يبلّغ به رسالة الله، ويتألف القلوب عليها. يظلُّ ودُّه ينبع من صفاء إيمان وتوحيد، وصدق علم ووعي، وسلامة فطرة وحسٍّ، ليبلُغ أهـدافـاً ربـانية جليّة في صدره. وحـين يقوم ودُّه على هذا النحو، فلا يتحوَّل ودّه إلى علاقات شخصية تزلُّ بها قدمه، ليؤمِّن عرضاً من الدنيا، أو كسبًا رخيصاً، أو تجارة زائلة. ولا يتحـوّل ودّه إلى عهـود ومـواثيق تتعارض مع قواعد الإيمان والتـوحيد والولاء. إنّ الودّ الذي تتحدّث عنه هذه الآيات

الكريمة هو الودّ الذي يغذّي إقبال «**الذين قالوا إنا نصارى**» على الإسلام، على الايمان والتوحيد، استجابة لدعوة المؤمن لهم. إن أساس هذه العلاقة، وأساس هذا الودّ، هو وجود تبليغ جليٍّ لدين الله، ووجود دعوة صريحة يسمع بها هؤلاء آيات الله، عسى أن تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، فيؤمنوا وتخبت قلوبهم لذكر الله ولآياته. فإذا انتفت الدعوة وانتفى البلاغ، فما هي العلاقة إذن؟ وماهو الودُّ الذي يقوم؟! إذا سكت الداعية المؤمن عن تبليغ دعوته إلى هؤلاء الذين يقولون عن أنفسهم إنا نصارى، فماذا يبقى للعلاقة معهم، إلا أن يكون عَرضٌ من الدنيا زائل، أو مصلحة عابرة، أو هوى غالب مُتّبع، وهذه الحالات كلها خارجة عن دائرة الآيات التي ذكرناها. فإذا نشأ ودّ عن ذلك بين الطرفين، وكان الطرف من أهل الكتاب يحارب الله ورسوله، ولا يسمع لآيات الله تتلى، فلعل هذه الحالة هي ما تشرحه الآيات في سورة المجادلة، الآيات التي تختتم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة : ٢٢].

وكذلك في سورة التوبة تأتي الآية الجامعة التي توازن بين حبٍّ وحبٍّ على أساس من العقيدة والإيمان :

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤].

فهنا في هذه الآية الجامعة تتحدَّد ظلال الحب، وتتحدد دوائره ومساحاته، لتظل في إطار الموازنة الدقيقة، الموازنة التي

يظل المؤمن مطالبًا بها ليقيمها على أساس من دين وعقيدة، وإيمان وتوحيد، وعلم صادق لا يعصف به الهوى، مع اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين.

وقضية أخرى كذلك: «**الذين قالوا إنا نصارى**». جاء هنا هذا التعبير معجزًا في امتداده الزمني، معجزًا في صياغته وظلاله. «**الذين قالوا**»، فهم الذين يقولون عن أنفسهم إنا نصارى، وهم الذين يعلنون ذلك إعلانًا يُعرَف عنهم، حتى يتميزوا عن غيرهم، وحتى تظل الرؤية أمام المؤمن واضحة. وفي آيات أخرى يسميهم القرآن الكريم: «النصارى». أما هنا، في هذا الموقف فلابد من أن يحدِّدوا هم هويتهم ليتميزوا بها، ولتتحدد بذلك مناهج مخاطبتهم، وأسلوب دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم وأنت تدعوهم وتبلغهم رسالة الله.

ففي واقعنا اليوم تلتبس الأمور. ذلك أن دولاً كثيرة من التي نحسبها دولاً نصرانية تعلن هي نفسها براءتها من الدين النصراني وغيره، وتعلن أنها دول «علمانية»، حتى أصبحت «العلمانية» منهجاً أخذ يتسرب إلى مجتمعاتنا الإسلامية، وحين صدَّق المغفلون منا نهج «العلمانية» فتفلَّتوا من دينهم

الإسلامي العظيم، تقليدًا للغرب، ظل الغرب، دوله وشعوبه، يتمسكون بنصرانيتهم لاستغلالها في الغزو والعدوان، والظلم والإفساد في الأرض، خفية أو جهرًا، ويظلون مع ذلك يعلنون في قوانينهم ودساتيرهم أنهم دول «علمانية»(١) أو «لا دينية».

فهذه الدول التي أعلنت عن نفسها صراحة أنها «لا دينية» لم تعد تخضع لهذه الآية الكريمة وأحكامها: ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾، ولا يخضعون لها كذلك لأنهم في واقع حياتهم وفي داخل بلادهم تفلتوا حقيقة من النصرانية حين أباحوا كل حرام: الزنا، الخمر، اللواط، وحين بدلوا أحكام الإنجيل في واقعهم، وفي مناهجهم. ولم يعد الدين يظهر إلا مخنوقًا بين جدران الكنيسة، أو مستغلاً مع الرهبان والقسيسين بالغزو والعدوان والظلم، حين لم يعد الرهبان والقسيسون يحملون الصفات التي عرضها القرآن الكريم عنهم، وحين أصبحوا أداة طيعة في يد أصحاب المصالح والمطامع

---

(١) العلمانية تعبير مُضلِّل وترجمة خاطئة للكلمة الإنجليزية: (Secularism) والترجمة الأصح «اللادينية».

الـدنيوية، وحين أصبح الدين لديهم أداة استغلال لتهييج عداء هنا وهناك، وعصبية جاهلية هنا وهناك، عداء وعصبية وعدوان وظلم وإفساد وجرائم تتبرأ منها النصرانية، ويتبرأ منها كل دين.

هؤلاء لا يمكن أن يكـونوا أقرب مودة أبداً. إنهم أشدُّ عداء وعـدوانـاً، وأكثـر توغّـلاً في استباحة أموال المسلمين وأوطانهم وأعراضهم. وما عرف التاريخ البشري جرائم في مستـوى بشاعة جرائم محاكم التفتيش في إسبانيا، وجرائم الحـروب الصليبية، وجرائم احتلال فلسطين وسائر البلاد الإسـلامية، والمـذابـح التي أدارهـا الإنجليز في الهنـد، والفـرنسيون في الجـزائـر، وبعض دول افـريقيا الأخرى، وإيطاليا في ليبيا، وروسيا في الأقـطار الإسلامية المجاورة. وكثير غير ذلك.

إن فهم هذه الآيات الكريمة، وفهم حدود الولاء ومعانيه وخصائصه، والمودة وجوانب انطلاقها ومداها، إن فهم كل هذا ضروري في حياتنـا اليوم، ونحن نجابه عدوانًا متعدد الأشكـال والأسـاليب، عدوانـا سافرًا كشَّر عن أنيابه، أو

عدوانًا خفيًّا يتسلل في عتمة الليل، ومسارب الظلام، عدوانًا بالقتل والفتك، وعدوانًا بالفكر والأدب، والقصة والشعر، والكلمة الطائرة في الآفاق، الكلمة التي تفعل أكثر من فعل القنابل.

٦ ـ ارتباط الولاء كله في حياة المؤمنين:

وقضية أخرى لابد من الوقوف عندها مع هذه الآيات الكريمة ليسهل علينا الوصول إلى أنقى أشكال الممارسة الإيمانية. ففي الآيات الكريمة التي تحدد دائرة الولاء ومساحته وخصائصه جاء التعبير القرآني: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾.

إن الولاء محدد بساحة الإيمان. ولكن الآية الكريمة فصّلت بعض معاني الإيمان اللازمة لقيام الولاء الصادق: ﴿**الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾. فالإيمان الذي تعنيه الآية الكريمة هو الإيمان البيّن الواضح للناس، الإيمان الذي تؤكده الممارسة الإيمانية في واقع الحياة، الممارسة الإيمانية التي تبتدىء بالشعائر كلها، وإن لم تذكرها

الآية صراحة، ثمَّ تمتدُّ الممارسة الإيمانية في جميع ميادين الحياة التي يخوضها المؤمن عملاً صالحًا، وعبادة، وأمانة، وخلافة، ويأتي التعبير: ﴿. . . وهم راكعون﴾. تحمل ظلال العبادة الممتدة على خشوع وقنوت. هؤلاء المؤمنون، بهذه الخصائص، تقوم بينهم الموالاة ويرتبطون على ولاء صادق نابع من ولائهم لله، مرتبط به.

وفي واقعنا اليوم اختلطت الأوراق، واضطربت الصورة. وربما وهب المسلم ولاءه لقريب أو رحم هجر الصلاة ومنع الزكاة، أو وهبها لصديق لا يجمعه به إلا فسحة الأرض، أو امتداد الهوى، أو غلبة المصالح، أو التصور الخاطىء للتوحيد والولاء النابع منه. وفي واقعنا اليوم أمواج هائلة من المنتسبين إلى الإسلام، تدخلهم الإحصاءات كلها في تعداد المسلمين هنا وهناك، ولكنهم لم يزيدوا في حقيقة الأمر عن أكثر من حمل «الهوية»، مبتوتي العلاقة مع الصلاة أو غيرها، يؤدون شيئاً ويتركون شيئًا، حتى نشأت طبقة في المجتمع الإسلامي أسميها اصطلاحاً «الطبقة العائمة». من هذه الطبقة يتوزع الولاء. فترى الرجل مسلمًا في الصلاة، فإذا

جاء الأدب نزع نزعة بعيدة، وإذا جاءت السياسة تفلت من الإسلام وأعطى ولاءه يمينًا وشمالاً، فإذا جاء الاقتصاد كان الاضطراب أكثر. هذه «الطبقة العائمة»، من أهم خصائصها ضعف زادها من منهاج الله ضعفًا لا يسمح لها بردِّ أمورها إليه، وربما اشتدَّ الضعف فصار جهلاً. ومن أهم خصائصها كذلك اضطراب التصور الإيماني والتوحيد وتناقضه مع خلل بيّن فيه. إن تدبر منهاج الله، وصحبته صحبة عمر وحياة، صحبة منهجية، هذا كله هو من أهم الضوابط للولاء ولتوجيهه، ولضبط المودة وتوجيهها، ولضبط الممارسة الإيمانية كلها في واقع حياتنا اليوم! إن تدبّر منهاج الله يعلمنا أن الولاء الصادق هو ارتباط على نهج، وعهد على أهداف، وبذل في مسيرة نهج واحد وأهداف واحدة ومسيرة واحدة على جلاء ينفي الريبة، ووضوح يجمع الجهود، وممارسة مطابقة لشعار، على درب طويل إلى الجنة.

٧ ـ ارتباط الولاء بقواعد الإيمان والتوحيد كلها وتناسقه معها:

إن هذه الصحبة المنهجية المستمرة لمنهاج الله ـ قرآنًا وسنَّة

ولغة عربية ـ من أهم الوسائل لحماية الإيمان والتوحيد، وحماية الـولاء من أن ينـحـرف. ولكن هذه الصحبـة المنهجية المستمرة، إذا صدقت وخلصت فيها النيّة لله، لا تقف بركتها عنـد ذلـك، ولكنها تمتد فتعطي المؤمن منهج حياة، والأمة منهج حياة، والبشرية منهج حياة، تنظم الأمر كله في كافة الميادين.

ومن هنـا تنشـأ الحاجة الملحّة إلى أن يعي المؤمن واقعه فيدرسه دراسة منهجية قائمة على منهاج الله. ويصبح وعي الواقع وفهمه ضرورة لحماية الولاء من أن ينحرف، ولحماية الإيمان والتوحيد.

وينشـأ عن ذلـك أيضاً ضرورة رعاية الممارسة الإيمانية والتدريب عليها حتى تظل نابعة من الإيمان والتوحيد، ومن العلم بمنهـاج الله، ومن العلم بالواقع. إن هذا التدريب والرعاية والإشراف على الممارسة الإيمانية ضرورة ملحّة لحماية الإيمان والتوحيد، وحماية الولاء وصدق العهد، وحماية العلم والعمل.

ومن هنـا تنشـأ الأسس الأربعـة الضرورية للعمـل

الإسلامي ونظريته، لتنضم هذه الأسس مع عناصر أخرى فتكـون كلها النظرية العامة للعمل الإسلامي . ونوجز هنا هذه الأسس الأربعة للتذكير والتأكيد :

ا ـ الإيمان والتوحيد على أساس من منهاج الله ، والدعوة لهما، وتثبيتهما، وتنميتهما ليكونا مصدر الحوافز والنهج ، والعلم والعمل .

ب ـ منهاج الله ـ قرآنًا وسنَّة ولغة عربية ـ دراسة وتدبرًا يغذي الإيمان، ويغذيه الإيمان .

جـ ـ الواقع : دراسته ووعيه على أساس الإيمان والتوحيد، وعلى أساس منهاج الله .

د ـ الممارسة الإيمانية لمنهاج الله في الواقع البشري ، والتدريب عليها ورعايتها ، والإشراف عليها وحمايتها .

إن هذه الأسس كلها مترابطة فيما بينها ، لا تستغني كلها عن أي واحد منها ، ولا تستغني كلها عن سائر عناصر العمل الإسلامي لتكوّن كلها النظرية العامة للعمل الإسلامي .

ولكن الأســاس الأول والقــاعــدة الأولى هي الإيمان والتوحيد بتكامل تصوره في منهاج الله ، حيث يكون الولاء أساس هذا الإيمان والتوحيد ومحوره في الواقع العملي في حياة الناس .

وهذا الولاء، وهو محور الإيمان والتوحيد، لا ينفصل عن سائر قواعد الإيمان والتوحيد، ولا يستقيم إذا انفصل عنها سواء أكان ذلك في الناحية النظرية والفكرية والعاطفية أم كان في النواحي العملية التطبيقية. فلابد «للولاء» نظريًا وعمليًا أن يرتبط بجميع قواعد الإيمان والتوحيد كما يعرضها منهاج الله، حتى يصدق الولاء فلا يكون نفاقًا وشعارات وزخارف لا رصيد لها في الواقع، وحتى يصدق الولاء فلا ينحرف فيه الفكر والتصور أو الممارسة والتطبيق.

من أجل هذا التكامل والترابط والتناسق في قواعد الإيمان والتوحيد التي تحوط الولاء الصادق وتبنيه وتحميه، نوجز أدناه أهم هذه القواعد، كما نفهمها من منهاج الله، وكما فصلناها في أكثر من كتاب من كتب الدعوة الإسلامية ولقاء المؤمنين، وكما نعتقد أنها ضرورية وأساسية في ميدان الدعوة والبلاغ، وميدان التربية والبناء، وميادين الممارسة كلها:

ا ـ الإيمان والتوحيد يمثلان القضية الأولى في حياة كل إنسان، والحقيقة الكبرى في الكون كله ونظامه.

ب ـ إن هذه القضية هي قضية الفطرة التي فطر الله الناس

عليها. ولكنها تتأكد كذلك برحمة الله حين جعلها آيات بيّنات مبثوثة في الكون، في الأرض والسماء وما بينهما وفي أنفسنا، وحين جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة لنرى هذه الآيات ونبصرها وندركها، وحين بعث الأنبياء والمرسلين، وأنزل معهم الكتاب، وحين بعث محمدًا ﷺ، النبي والرسول الخاتم، وأنزل معه القرآن مصدقًا للكتب السابقة كلها ومهيمنًا عليها.

ج ـ إن الأديان المختلفة التي نراها في تاريخ الإنسان، وفي آثارها الباقية، تمثل انحرافًا عن الإيمان والتوحيد المغروس في الفطرة، والذي جاءت به الرسل، حين بعث الله في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

د ـ الألوهية والربوبية بكل معانيها التي تبين أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الأسماء الحسنى كلها، نؤمن بها كلها، على تكاملها وترابطها، دون أن نترك منها جزءًا أبداً، ودون أن نخلط بين صفات الخالق الواحد والمخلوقين.

هـ ـ عبودية الإنسان المخلوق لرّبه وخالقه الله الذي لا إله

إلا هو، ومعرفة حدود العبد المخلوق وعدم تجاوزها بالكبر والغرور.

و ـ العهد الثابت مع الله، العهد الذي أخذه الله من بني آدم كلهم، ومن الشعوب والأمم كلها، ومن الأنبياء والمرسلين. وهو العهد الذي يقوم على الشهادتين: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله. وهو العهد الذي فصَّل منهاج الله شروطه كلها تفصيلاً. وهو العهد الذي يجب أن تقوم كل العهود في الحياة الدنيا عليه وتنبثق منه وترتبط به.

ز ـ الولاء الخالص لله، الولاء الذي ينبع منه كل ولاء في الحياة الدنيا في ساحة الإيمان والتوحيد، ولا يقوم أي ولاء خارج هذه الساحة، إلا بين الكافرين أنفسهم.

ح ـ الحب الأكبر في حياة المؤمن هو لله ولرسوله. ومن هذا الحب الأكبر ينشأ كل حب آخر في الحياة الدنيا، ينبع منه ويرتبط به، ويرتبط الحب كله بالولاء الصادق والعهد الصادق وبسائر قواعد الإيمان والتوحيد.

ط ـ التضرُّع والخشية والدعاء والرجاء واللجوء والاستعانة،

كل ذلك لله وحده لا شريك له.

ي ـ منهاج الله ـ قرآنًا وسُنَّة ولغة عربية ـ هو وحده يقدم الصورة الكاملة المتناسقة للإيمان والتوحيد، فلابد من التزام صحبة منهاج الله صحبة منهجية، صحبة عمر وحياة، مع كامل الشروط التي عرضناها في كتب الدعوة.

ك ـ لابد من معالجة الانحرافات عن قواعد الإيمان والتوحيد في مدرسة الإسلام، في مدرسة الدعوة الإسلامية ولقاء المؤمنين، بوسائل وأساليب تنبع من منهاج الله ومن حاجة الواقع، وتنمو مع الممارسة والخبرة والمران.

ل ـ لابد من انطلاق الدعوة الإسلامية على الأُسس السابق عرضها، لتكون قضية الإيمان والتوحيد هي الهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلامية، لا تتنازل عنه ولا تتركه تحت ضغط أي شعار مرحلي، وتحت ضغط أي مصالح آنية يتوهم الدعاة بسببها جواز التخلي عن هذا الهدف الثابت العظيم.

حيث تثبت هذه القواعد والخطوات كلها وتتناسق، يأخذ الولاء صورته الأمينة في النظرية والتصور والتطبيق. وتبرز

معانيه المشرقة في حياة الأمة عزًّا ونصرًا وتمكينًا.

إنها مسئولية الإنسان، مسئولية الطاقة البشرية المؤمنة أن تضع نهجها التفصيلي للدعوة والبلاغ، وللتربية والبناء، وللتدريب والاعداد، وللممارسة في شتى الميادين، إن وجود النهج المفصّل القائم على الأسس الأربعة السابقة: الإيمان والتوحيد، منهاج الله، الواقع، الممارسة الإيمانية، ضرورة ملحّة لا غناء عنها. وإن غياب النهج التفصيلي سبب كاف لاضطراب الممارسة والولاء، واختلاط التصور والفكر، واضطراب العلم واختلاط مصادره ومناهجه.

إن النهج التفصيلي والتخطيط ضرورة لحماية الولاء، ولصدق ممارسته، ولسلامة حمايته، وصفاء التدريب عليه والإعداد.

إنها مسئولية الإنسان وهو محاسب عليها. وإنها جزء من الأمانة التي يحملها في الحياة الدنيا.

ولكننا يجب أن نؤكد ونكرر ونذكر بأنه مهما بلغ الجهد من الاتقان، والنهج والتخطيط من الدقة، فلا يعني ذلك أن من ندعوه سيستجيب، وأن الإيمان والهداية بيدنا نحن البشر.

كلّا! إن الهداية من عند الله وحده، يهدي من يشاء، ويُضلّ من يشاء، ومشيئته حق وعدل لا ظلم فيها أبداً، ومشيئته هي مشيئة الله العليم الخبير الحكيم الغفور الرحيم الجبار المنتقم. إن مشيئة الله عدل لا ظلم معها، سواء أعرفنا نحن وجه العدالة أم لم نعرفها، فمعرفتنا هي معرفة العبد المخلوق، ليست شرطاً لعدالة الله الخالق. ومشيئة الله هي مشيئة العليم الحكيم الخبير، فلا تتعطل الحكمة إن جهلناها نحن. إن مشيئة الله ماضية في الكون، فلا يُسأل عما يفعل، فهو الخالق المدبّر لا إله إلا هو سبحانه.

إن الهداية من عند الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولكننا نؤدي واجبًا أمرنا الله به: أن ندعو لدينه، وأن نتعهد ونربي وندرب، وأن نسعى على نهج وخطة ووعي، وعن دراسة وبحث وتبينّ. فإذا صدقت النيّة، وإذا صح العزم وبذلنا الجهد في النهج والتخطيط، ورسمنا الدرب وحددنا الأهداف، وتحققنا أن ذلك كله مطابق لمنهاج الله، ثم سرنا وتوكلنا على الله، فعسى أن يصحّ التوكل حينئذ. وبغير هذه الشروط كيف يصدق التوكّل؟! إنه حينئذ تراخ وكسل

وعجز! إنه مسيرة في ظلام وضياع!

إن صدق النية وإخلاصها لله سبحانه وتعالى عن وعي صادق لجلال الألوهية والربوبية، وعن وعي صادق لحدود العبد المخلوق، وإن وضوح الدرب، وجلاء الأهداف، وارتباط الدرب بالأهداف، وارتباط ذلك كله بمنهاج الله وبالهدف الأكبر والأسمى ـ الجنّة ـ، إن هذا كله ضرورة لصدق الولاء لله رب العالمين، ولصحة الموالاة بين المؤمنين.

٨ ـ الولاء والواقع:

لقد وضح لنا من خلال العرض الموجز السابق خطورة قضية الولاء ومنزلته في التصور للإيمان والتوحيد، ودوره الكبير في جوهر الممارسة الإيمانية في واقع الحياة.

في واقع المسلمين اليوم أهوال من الآلام والمآسي والأحزان، وصور مفزعة شتَّى للهوان والخذلان. وما كان الله ليظلمنا أبداً. فما نعانيه اليوم هو بما كسبت أيدينا. وإن باب النجاة مفتوح أبداً للمؤمنين الصادقين، إذا هم صدقوا الله!

من السهل أن نجد أسبابًا مادية واضحة لما نعانيه. ومن السهل أن نجمع قائمة كبيرة بأسباب هواننا، ولكن هذه الأسباب كلها مهما تنوعت يمكن جمعها في قضية رئيسة واحدة، هي قضية صفاء الإيمان والتوحيد على التصور الذي يعرضه منهاج الله ـ قرآنًا وسنَّة

ولغة عربية. ومحور هذا التصور وجوهره وخلاصته في ميدان الممارسة والتطبيق هو الولاء الأول الخالص لله سبحانه وتعالى، ولاء تنبع عنه الموالاة بين المؤمنين في الدنيا ليكونوا أمة واحدة، وينبع عنه كل ولاء آخر في الدنيا: بر الوالدين، وحقوق الجار، وسائر روابط المؤمنين وعلاقاتهم.

فهل هذا الولاء قائم في واقعنا اليوم؟! هل تقوم مناهج المسلمين في الأرض على تربية القلوب عليه؟! هل البيوت تؤدي مسئوليتها في بناء هذا الولاء، هل الجامعات والمعاهد، هل العلماء ورجال الفكر والأدب، هل الحركات الإسلامية، هل مؤسسات الأمة كلها ووسائل الاتصال والنشر، والكلمة والكتاب، هل هذه كلها تؤدي الأمانة التي كلفها الله بها من بناء هذا الولاء ورعايته وتنميته وتوجيهه؟!

لو نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم نجد الخلل في أصغر دائرة ثم يمتد إلى دوائر أوسع وأكبر.

فبرُّ الوالدين مثلاً لا ينبع من الولاء الخالص لله، ومن اتباع آيات وأحاديث. والأسرة لا ترعى بناء ذلك والإشراف عليه. فيتحول بر الوالدين إلى صورة من صور العصبية الجاهلية المنفصلة عن قواعد الإيمان والتوحيد، وقواعد منهاج الله. وتصبح الصورة أكثر وضوحًا حين نقارن هذا الواقع بما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، تلامذة مدرسة النبوة، حين يلقون آباءهم الكفّار في ميدان القتال، كما فعل

أبوعبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ في غزوة بدر حين قتل أباه.

والقربى والأرحام تتحول أيضاً إلى عصبية جاهلية تضع أواصر القربى فوق كل آصرة حتى ينحصر الولاء فيها. فتتحوّل إلى عامل تفريق وتمزيق، وقوة فتنة في الأرض وشر، بدلاً من أن تكون عامل جمع وتقريب، وقوة خير وصلاح ينبع من صدق الولاء لله وسلامة اتباع شرعه ومنهاجه.

والوطن والأرض، والقوم والصحاب، تتحول روابطهم كذلك إلى عصبيات جاهلية تفرّق الناس حين تنقطع عن الولاء لله. وتصبح الإقليمية والقومية مصادر فتنة وهلاك، وباباً يتسلل منه الأعداء، فإذا الأمة ممزقة إرباً، يصرعها الهوان وتهلكها المذلة، وتنتفض الجاهلية بكل شرورها، وكأنها عادت تقول:

وما أنا إلا من غُزَيّة إن غوت
غَوَيْتُ وإن ترشدْ غُزَيّةُ أرشد

وكما قال الشاعر الذي ذكرناه سابقًا:

لو مَثّلوا ليْ موطني وثناً
لهممت أعبد ذلك الوثنا

ويمضي هذا الانحراف في كيان الأمة حتى تضطرب كل العلاقات في واقعها، مع العلماء وأولي الأمر وأصحاب النفوذ وغيرهم، وحتى تصوغ المصالح الشخصية والأهواء هذه العلاقات

بدلاً من أن يصوغها منهاج الله. فتصبح هذه العلاقات سبب فتنة وفساد تنشر الرشوة والاستغلال، والغش والخديعة، واللهو والخمر والزنا وغير ذلك من الحرام والموبقات.

ثم تتغير النظم التربوية والثقافية، والنظم الاقتصادية والمالية، وقواعد الصناعة والتجارة، ويمتد الانحراف إلى جميع ميادين حياة الأمة، فإذا هي مشلولة القوى، مغلوبة على أمرها، سطا عليها أعداؤها، فذلّت وهانت، وحقت عليها كلمة الله وعقابه.

ومثل هذا الانحراف في واقع الأمة قد لا تنكشف آثاره في سنة أو سنتين، وإنما هي أجيال تمضي حتى يعتاد الناس هذا الانحراف ويألفوه ويرضوه، فلا يسعى أحد للإصلاح، فتحق كلمة العذاب على المفسدين، على الناس كافة!

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

لقد كان الجهل بكتاب الله وسنّة رسوله سببًا هامًا في هذا الانحراف. ولقد عرف أعداء الله مصدر القوة في المسلمين. علموا أنه منهاج الله، وأنه الإيمان والتوحيد، وأنه الموالاة بين المؤمنين موالاة نابعة من الولاء الخالص لله، الولاء النابع من صفاء الإيمان والتوحيد. لقد عرف الأعداء مصدر هذه القوة فسعوا سعيًا جاداً لضربها مستعينين بخبرة القرون الطويلة، مستفيدين من كل قوى

الشر والفساد في الأرض فاستخدموا الجيوش والعدوان، وحركات التنصير والرهبان، ونشر جميع مذاهب الفتنة والضلال تحت شعارات محببة وزخارف مغرية: حقوق الإنسان وهم الذين قتلوها وأضاعوها، والإخاء والمساواة والحرية وهم الذين مزّقوها وأزالوها. نشروا تحت هذه الشعارات مذاهب الفتنة والانحلال والإلحاد كالشيوعية والاشتراكية والديمقراطية و«اللادينية» والحداثة، وغير ذلك من المذاهب التي ملأت الأرض حروبًا ومجازر وعدوانًا ولهيبًا.

لقد عرف أعداء الله مصدر قوة المسلمين فسعوا إلى ضربها. ويمكن أن نحدد أهم الوسائل والأساليب التي اتبعوها بما يلي:

١ ـ الغزو والعدوان ونهب الثروات والقتل والإبادة.

٢ ـ إضعاف اللغة العربية بين المسلمين حتى يصعب عليهم فهم كتاب الله وسنَّة رسوله واتخذوا من أجل ذلك كل الأساليب الخبيثة والإجرامية.

٣ ـ عزل المسلمين عن منهاج الله حتى جهلوه ونسوه وتركوه وراءهم ظهريًا، وعزلهم كذلك عن فهم واقعهم من خلال منهاج الله.

٤ ـ نشر القومية والإقليمية والعائلية وجميع الروابط الجاهلية.

٥ ـ نشر الانحلال الخلقي: الفاحشة كلها من زنا ولواط وخمر ومخدرات ورشوة.

٦ ـ تمزيق روابط الأسرة ووشائج الأرحام وعلاقات الابن بأبيه والأب بابنه.

٧ ـ ادعاء مساواة المرأة بالرجل في غير ما أذن الله به حتى أصبحت المرأة مصدر فتنة بدلاً من أن تكون مصدر خير وتربية وبناء.

٨ ـ نشر المذاهب الفكرية الغربية والشرقية لتمزّق الأمة ولتنشر الفساد.

نحن بحاجة أن ندرس هذه الأساليب بالتفصيل حتى ننهج الدرب الحقّ لمحاربتها والنجاة منها. وأول ذلك عودة اللغة العربية وعودة الكتاب والسنَّة لبناء الأمة كما بناها رسول الله ﷺ أول مرة.

إنها مسئولية كل مسلم أن ينهض لحماية أمته ودياره وثرواته، ولا يُعذر أحد أبدًا في التقصير في ذلك. كل مسلم يستطيع أن يبدأ بنفسه على الأقل حتى يصلحها على طاعة الله إيمانًا وتوحيدًا، وعلمًا بمنهاج الله، وعلمًا بالواقع، وممارسة إيمانية. ثم ينهض لسائر مسئولياته كما يتعلمها من منهاج الله، ومن حاجات واقعه، ومن نهج الدعوة إلى الله ورسوله.

إنها مسئولية كل مسلم، وكل جماعة، ومسئولية المسلمين كلهم بمختلف مستوياتهم ومؤسساتهم، أن يضع كل منهم النهج الأوفى لأداء هذه الأمانة، لتلتقي المناهج كلها على أسس ثابتة تجمع الجهود والعزائم والقلوب.

عندما ندرس «الولاء والواقع» فإننا ننطلق من النظرية الأساسية

التي ندعـو لها، النظرية التي تقوم على قاعدتين رئيستين إذا صحّ الإيمان والتـوحيد، وإذا التـزمنـا صدق التـدريب على الممـارسـة الإيمانية. هاتان القاعدتان هما:

المنهاج الرباني
والواقع

ولقد فصلنا في كتابنا «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية»، وفي كتاب «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق» وفي سائر كتب الدعوة هذه النظرية بشمولها وامتدادها.

وإذا أضفنا لهاتين القاعدتين الإيمان والتوحيد، وكذلك الممارسة الإيمانية فتصبح القواعد أربعًا، لتمثل هذه القواعد الأربع، أو الأسس الأربعـة، عنصرًا هامًا من عناصر النظرية العامة للدعوة الإسـلامية كما يعرضها كتاب «النهج والممارسة الإيمانية»، وكتاب «الصحوة الإسلامية إلى أين؟» وكتاب «نهج الدعوة وخطة التربية والبناء»، وكذلك سائر كتب الدعوة.

٩ - في ميدان الدعوة الإسلامية.

كان يمكن أن تكـون الفقـرة السـابقة «الولاء والواقع» كافية لتغطية هذا الموضوع: «الولاء وميدان الدعوة الإسلامية». إلا أن الدعوة الإسلامية ميدان تربية وبناء، وممارسة وجهاد. وهي ميدان ماضٍ إلى يوم القيامة ومن هنا تصبح لها أهمية خاصة عند دراسة أي قضية إيمانية، حتى تستقر التربية على أسس سليمة صادقة،

والممارسة على نهج أمين.

إن الدعوة الإسلامية مرتبطة بواقع الأمة وحياة الناس، ورجالها وجنودها هم من الناس الذين تمضي الدعوة بينهم. فلا عجب إذًا إذا حملت الدعوة الإسلامية قدرًا غير قليل من أمراض المجتمع وشوائب الناس. ولكن العجب أن تقف الدعوة الإسلامية عاجزة أمام هذه الأمراض، لا تضع العلاج ولا تبذل الجهد، وإنما تمضي مع الأيام تجمع مرضاً إلى مرض، وخللاً إلى خلل، وأخطاء إلى أخطاء، حتى يصعب العلاج بعد ذلك، أو حتى تنتشر الأمراض وتتسع رقعتها، أو حتى يعتادها أبناء الدعوة فيحسبونها عافية وصحة فلا ينهضون إلى علاجها. في هذه الحالات تنتكس الدعوات وتتعثر خطواتها، وتنتقل من فشل إلى فشل، ومن هزيمة إلى هزيمة، دون أن تستطيع أن تلمس المرض أو تضع العلاج.

واضطراب الولاء، وعيًا وممارسة، هو من أخطر ما يعانيه العمل الإسلامي في واقعنا، وهو من أخطر القضايا التي تحتاج إلى يقظة حقيقية، وجهود حقيقية، وعلاج حقيقي.

لقد أشرنا في الفقرة السابقة إلى نماذج من اضطراب الولاء في الواقع البشري في حياة المسلمين: بر الوالدين، صلة الرحم والقربى، الوطن والأرض، القوم والمواطنون على الأرض، الصداقات الشخصية، وغير ذلك.

هذه النماذج ذاتها قد تكون مصدر الخلل والاضطراب في الدعوة

الإسـلامية وقد تحتاج بسبب ذلك إلى علاج ومتابعة. وقد يكون هناك صور أخرى لاضطراب الولاء.

فقد يضطرب الولاء في الدعوة الإسلامية حين لا يستطيع المسلم أن يوازن بين ولائه لدعوته وولائه لوالده، لأخيه، لابنه، لصديقه إلى غير ذلك من العلاقات الحقيقية القائمة في المجتمع وفي حياة الناس عامة.

فقد يظهر الاضطراب في الولاء حين يحسب المسلم أن من ولائه للدعـوة أن لا يبّر أبـاه، أو أن يقـطع رحمه، أو أن يُقطِّع صلاته الشخصية، أو أن يهجر وطنه وقومه.

نعم! قد يحدث هذا حقيقة، وقد يدلُّ في حالة من الحالات على صفاء الولاء لا على اضطرابه، وفي حين آخر يكون صورة مفزعة لاضطراب الولاء وخلله. فإذا قطع المسلم بعض صلاته الشخصية لأسباب إيمانية تقوم على نصوص واضحة لا تأويل فيها، وعلى فهم صادق للواقــع، وعـلى موازنـة واعية أمينـة، حتى أصبـح قطع العلاقات ضرورة لصدق الولاء لله أو لدعوة الله، فعندئذ يكون هذا القـطع طاعـة لله وعمـلاً صالحـاً. أمـا إذا خلت النصوص الـواضحـة أو غلب التـأويل البـاطل، أو غلب الجهل بالواقع، واضطربت الموازنة، فالعمل إذاً ليس عملاً صالحًا ولا هو عبادة، وإنما هو خلل في حقيقة الولاء وفهمه وممارسته، وربما يكون خللاً في

فساد النية كذلك. فيبطل العمل عند الله، ويصبح في الدنيا فسادًا وشراً.

وقد يعطي المسلم لأخيه في الرحم أو لقريب من أقربائه درجة من المـوالاة في أمور الدعوة والدين أعلى مما يجوز له، أو أعلى مما يعطي لغيره، على أساس عصبية القرابة فحسب. وقد تتحول هذه المـوالاة إلى فتنـة وفساد وعصبية جاهلية وشر كبير. وقد تضطرب بسبب ذلـك كثـير من العلاقات، وتجاوز للحدود، وافتئات على حقوق الآخرين.

وقـد يرى المسلم في قول العـالم مثلًا حقاً مطلقاً، فيعطيه من الولاء ما يصدُّه عن كتاب الله وسنَّة رسوله، ويحجزه عن البحث عن الحجة الشرعية والدليل الصادق في منهاج الله. أو يضطرب الولاء فلا يعطي العالم حقّه من التقدير والاحترام، ولا ينزله المنزلة التي له في دين الله. وفي هذه الحـالـة أو في تلك فتنـة وفسـاد. ويصبح اضطراب الولاء سببًا لفرقة وشقاق، وخصومة ونزاع.

وكذلك حب المسلم لوطنه أو لأبناء وطنه قد يطغى على صفاء الولاء الصادق لله، حتى يصبح هذا الحب عصبيّة جاهلية تتحكم وحدها في العلاقات والروابط، وفي السلوك والمواقف، وتدفع إلى نصرة باطل أو خذلان حق. ويصبح التجمع والتلاقي يقوم على أسـاس الوطن وحده، فتنهض الأخلاق الوطنية لتضم الولاءات المتناقضة المضطربة، وليصبح غير المسلم أو المسلم المتفلّت أو ابن

الطبقة العائمة، ليصبح هؤلاء كلهم «أقرب المقرّبين» إلى المسلم الـذي يطلع على النـاس داعية وليصبـح المسلم الملتـزم «أبعـد الأبعدين» عنه، وليغلِّف هذا كله بشعار كبير: الولاء لله، أو بشعار واسع «الإسلام»! ويزداد اضطراب الولاء حين تشتد عصبية المدينة ضد مدينة أخرى، وحين يصبح التجمع على أساس المدينة مصدر تفـرقـة وتمزق، تتقطع من خلاله روابط الإيمان وأخوة الإسلام. فتضطرب بذلك العلاقات في قلب الدعوة الإسلامة وتثور الأحقاد والضغائن، وتهيج الفتنة وتمتد نارها، حتى يشعلها الشيطان عصبية جاهلية، وأهـواء دنيوية، لا يستطيع الشعار الإسلامي وحده أن يطفئها أو يخمد جذوتها.

ومن الأمثلة على اضطراب الولاء أو انحرافه تحكم العادات في سلوك المسلم وسيطرتها عليه، حتى حين تخالف قواعد الإسلام. وكلَّما استمرَّ المسلم في ممارسة هذه العادات ازدادت الفتنة لها، حتى يصعب عليه أن ينزع نفسه منها، ثم تزداد ممارسته حتى يحسبها خيراً دون أن يشعر بتناقضها مع الإيمان وقواعد الإسلام وشروط صدق الولاء.

مهمـة الدعوة الإسلامية علاج هذا الاضطراب والانحراف، ووضع الدراسات والأبحاث، وتحديد المناهج والأساليب والوسائل لذلك. إن ترك هذه الأمراض تتفشى في واقع الدعوة الإسلامية خطر كبير عليها وعلى الأمة كلها.

وإن هذا العـلاج يحتـاج إلى القلوب المؤمنة الحانية، والعقول الواعية، والنفوس الصابرة، حتى تقوى على صدق الإشراف وقوة المراقبة وحسن المتابعة وسلامة التوجيه.

الإشراف والمـراقبة والمتابعة والتوجيه خطوات لا غناء عنها من أجل العلاج والتقويم. ولابد أن تأخذ هذه الخطوات شكلاً تطبيقيًا عمليًا، ونظامًا إدارياً، ونهجاً إيمانياً مفصّل الخطوات والمراحل.

ولابد أن تشمل نظرية العمل الإسلامي ما يوفر المنطلق لهذه الخطوات والمراحل، والإشراف والمراقبة والمتابعة والتوجيه، وما يوفر الوسائل والأساليب لهذه المعالجة الضرورية.

ولابد أن تكفل النظرية والمناهج والأساليب قوة الاستمرار لهذه المعالجة، ذلك لأن الضعف البشري يظهر بين حين وآخر، ويمتد في واقع الإنسان امتدادًا بعيدًا، مما يفرض ضرورة العلاج والمتابعة.

ففي حياة الرسول ﷺ، كانت متابعة النبوة لأي خلل يظهر في العقيدة قوية مستمرة، يقظة غنية. ألم يقل الرسول ﷺ: «**يامعشر المسلمـين! الله الله أبـدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسـلام وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألّف بين قلوبكم**»(١).

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١، ط٢ (ص: ٥٥٦) ـ البابي الحلبي واولاده ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان. ويظل الإشراف والمراقبة، والمتابعة والتوجيه من أبرز معالم مدرسة النبوة.

ولا يتسع المجال هنا لاعادة عرض نهج الدعوة الإسلامية في هذه المعالجة المستمرة. ولكننا عرضنا تفصيل ذلك في أكثر من كتاب من كتب الدعوة، وأوجزنا في الصفحات السابقة بعض معالمه، ولا بأس أن نشير هنا إلى بعض معالم ذلك النهج:

١ ـ النظرية العامة للدعوة الإسلامية بأسسها الأربعة وسائر عناصرها، لتكون هذه النظرية المنطلق للنهج والتخطيط، والدعوة والبيان، والتربية والبناء، ولسائر أهداف الدعوة الإسلامية.

٢ ـ المنهاج الفرديّ ليكون مصدر الغذاء والريّ، ومصدر العلم والزاد في حياة المسلم، وليوفر له صحبة منهجية للمنهاج الرباني، ودراسة منهجية للواقع، ووعيًا سليمًا لفقه الدعوة والممارسة الإيمانية.

٣ ـ منهج اللقاء ليكون ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية وقضاياها المختلفة وقواعدها الأساسية.

٤ ـ النهج والتخطيط اللذين يقومان على الأسس الأربعة لنظرية الدعوة الإسلامية، ولرسم الدرب الذي يوصل للأهداف المحددة في الدعوة الإسلامية.

٥ ـ التقويم والميزان الذي يزن الناس والأعمال والمواقف بميزان ثابت أمين هو ميزان الإسلام، وهو التقويم الذي يدرس الخلل

والأخطاء والعيوب، ويضع العلاج والوسائل مستعينًا بما سبق عرضه أعلاه، ويظل التقويم دوريًا خاضعًا لنهج وخطة. وهو التقويم الذي يوفر الفرصة اللازمة لنمو الجهد البشري وتطوره على قواعد إيمانية وعلى نهج ربّاني.

من خلال هذه النظرية والقواعد تدور الشورى ويقوم الرأي وتنهض النصيحة، ليحيط هذا كله بالعمل والبذل والسعي، وليمدَّه بالتوجيه والقوة والزاد.

ولقد سبق دراسة هذه الأسس والقواعد في كتب الدعوة دراسة مفصَّلة ترعى الأهداف وتبين السبيل، وترعى كذلك حقيقة الإيمان والتوحيد وعناصره التي سبق أن عرضناها في صفحات ماضية، ومن أهم هذه العناصر «الولاء»، الولاء الخالص الصادق لله رب العالمين.

ويظل الجهد منصبًّا على بناء الولاء الخالص لله سبحانه وتعالى، لينبع منه كل ولاء آخر في الحياة الدنيا. فإذا ارتبطت القلوب كلها بربها وخالقها على ولاء صادق صاف، فعندئذ فقط تتحقق الأخوة في الله في أجلى معانيها وأصدق صورها، وعندئذ فقط يصدق بر الوالدين، وتصدق الموالاة بين المؤمنين. أما إذا اضطرب الولاء لله وانحرف، فإن الموالاة بين المؤمنين تضطرب والأخوة في الله تضطرب والأهواء تثور والمصالح الدنيوية تموج.

إذاً مهمة الدعوة الإسلامية هي دعوة القلوب إلى صفاء الإيمان والتوحيد، وصدق الولاء، وبناء ذلك في النفوس ورعايته وحمايته، ومعالجة النفوس على أسس إيمانية عسى أن تثبت على الولاء الصادق الخالص لله.

ونؤكد في ختام هذه الكلمة ما قلناه قبل صفحات من أن مهمتنا هي الدعوة والبيان والتربية والبناء لبلوغ سائر أهداف الدعوة الإسلامية كما حددها الله رب العالمين. إننا ندعو ونبذل جهدنا من أجل ذلك، ونرسم نهجنا ونحدد غاياتنا، ونخلص نياتنا ونصدق عزائمنا، ولكن الله سبحانه وتعالى وحده يهب الإيمان لمن يشاء، ومشيئة الله هي مشيئة الحق والعدل. إنه هو الله رب العالمين له الأسماء الحسنى كلها، يفعل ما يشاء له الأمر كله وله الملك كله وله الحمد كله.

فهرس الكتاب

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الخامسة .
- الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الثالثة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثالثة .
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة .
- التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى .
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى .
- إلى النهج والممارسة الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- الصحوة الإسلامية إلى أين؟ ـ الطبعة الأولى .
- النية في الإسلام وبعدها الإنساني ـ الطبعة الأولى .
- الولاء بين منهاج الله والواقع ـ الطبعة الأولى .
- الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام ـ الطبعة الأولى .

- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية .
- الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة .
- تقويم نظرية الحداثة ـ الطبعة الأولى .

- **ديوان الأرض المباركة** ـ الطبعة الخامسة.
- **ديوان موكب النور** ـ الطبعة الثالثة.
- **ديوان جراح على الدرب** ـ الطبعة الثانية.

- **ملحمة الغرباء** ـ الطبعة الثانية.
- **ملحمة القسطنطينية (فتحان)** ـ الطبعة الأولى.
- **ملحمة الجهاد الأفغاني** ـ الطبعة الثالثة.
- **ملحمة فلسطين** ـ الطبعة الرابعة.
- **ملحمة الأقصى** ـ الطبعة الأولى.
- **ملحمة الإسلام في الهند** ـ الطبعة الأولى.

- **على أبواب القدس** ـ الطبعة الأولى.
- **فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع** ـ الطبعة الثالثة.

- **دراسة انتشار الموجات الألكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الانجليزية)** - الطبعة الأولى.

كتب تحت الطباعة

- **نهج الدعوة وخطة التربية والبناء.**
- **جهاد الدكتور عبدالله عزام بين فلسطين وأفغانستان.**

الفسح

وزارة الإعلام ـ الرياض

الرقم ٥١٦٦/ م

التاريخ ١٨/ ٧/ ١٤١٢ هـ

المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري والإخراج ـ الفرقان ٤٠٢٩٨٦٥ ـ ٤٠٢٦٦٧٤

دار النحوي للنشر والتوزيع

(ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١)

هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧

الرياض ـ المملكة العربية السعودية